المثقف وخطاب السلطة في الرواية الجزائرية روايات بشير مفتي أنموذجا

The intellectual and the discourse of power in the Arabic novel, the novels of Bashir Mufti as a model

د - ليلى تحري[1,*]

[1] جامعة الطارف،(الجزائر) ، **tahrileila82@gmail.com**

تاريخ الإيداع: 2022/02/15 **تاريخ المراجعة**:2022/07/17 **تاريخ النشر**: 2022/09/30

ملخص:

تهدف هذه الورقة النقدية للوقوف عند الوظائف الموكولة للمثقف ورسالته في الحياة في الوقت الذي اهتزت فيه صورة المثقفين،ففي خضم تحولات تاريخية ومعرفية تنخرط سرديات ما بعد الاستعمار لتصوغ خطاباتها في مسار التركيز على هموم المثقف في صراعه مع السلطة ،هذا المسار الذي تبنته يمثل مجاوزة انتهاكية عبر إحلال معرفة نسقية تحفر في الممنوع لتشرح السلطة وتكشف ألاعيبها في سياق مشروع تنويري يسعى لفهم مشاكل الحاضر عبر فضاء الكتابة باعتبارها سردا انتهاكيا واستراتيجية مضادة لمواجهة عمليات الإسكات والقمع الممارسة على المثقفين.

كلمات مفتاحية: المثقف،السلطة،السرد،القمع،الانتهاك.

Abstract:

This paper aims to stand at the functions assigned to the intellectual and his message in life at a time when the image of the intellectuals has been shaken. By replacing systemic knowledge that digs into the forbidden to explain power and reveal its tricks in the context of an enlightening project that seeks to understand the problems of the present through the space of writing as a transgressive narrative and a counter strategy to confront the processes of silencing and repression practiced on the intellectuals.

Keywords: *the intellectual, the authority, the narrative, the repression, the violation.*

تقديم:

إن الحديث عن الدور المنوط بالمثقف هو حديث يصطدم بمنطق السلطة،ذلك أن الدور الطليعي للمثقف هو الذي يجسد الذاكرة المضادة بخطابها المضاد،وبناء نظرية للمثقف يلح بقوة على مدى مقاومته للسلطة وعدائيته لها،ويعد خطاب ما بعد الاستعمار نوعا من الخواء الثقافي الذي زعزع وظيفة المثقفين وشكك في مصداقيتهم في ظل تخطيط السلطة المتعالية التي تتمثلها الدولة التي عملت على تكميم الأفواه ولم تعترف بالمواقف النقدية لمثقفيها،في ظل هذا المنحى الخطابي تنهض روايات بشير مفتي بخور السراب،أرخبيل الذباب،دمية النار،غرفة الذكريات لتعاين إشكالية المثقف في ظل السلطة التي عملت على تحجيم أدوار المثقفين وتهميش فاعليتهم فانتهى الأمر إلى فقدان الشخوص الروائية لمصداقيتهم،وفي مواجهة منطق كهذا كان لا بد من ظهور المثقف النقدي واختراع نظرية ثقافية قائمة على المواجهة الثقافية لمنظومة من القيم التي وجب أن تخضع للتغيير وإعادة النظر و المساءلة .

* المؤلف المراسل.

ونحن ننطلق في هذا المقام من موقع المثقف في الثقافة العربية عامة و الجزائرية خاصة فإننا نطرح التساؤل الآتي:

كيف استطاعت روايات بشير مفتي تصوير الصراع بين السلطة والمثقف؟ وإذا كانت السلطة قد نجحت في امتصاص المثقف فمن أين يأتي الخلاص؟

أولا- المثقف و السلطة في الفكر الغربي: إن الحديث عن المثقف في علاقته بالسلطة يحيلنا إلى مفكرين مارسوا نفوذا كبيرا على الثقافة العربية : **"أنطونيو غرامشيAntonio Gramsci ، sartre Jean paul جان بول سارتر ، إدوارد سعيد Edward Said"**فقد حاول **غرامشي"Gramsci** " أن يبين أن الذين يقومون بوظيفة المثقف أو المفكر في المجتمع يمكن تقسيمهم إلى نوعين : المثقف التقليدي والمثقف العضوي و أهمية المثقف الأخير في نظر **غرامشي** "كونه يرتبط بالمجتمع على نحو فعال ويناضل باستمرار لتغيير العقول "[1]

تأتي أهمية المثقف العضوي في نظر "**غرامشي**" من تلك الحركية و الفعالية في المجتمع فهو الذي يحمل رسالة طلائعية و يسعى للدفاع عن أفكاره دفاعا مستميتا في ظل المؤسسات الكبرى التي تسعى بأشكالها على فرض الرقابة الثقافية على المثقفين .

وإذا كان **غرامشي"** قد قسم المثقف إلى صنفين و ركز على طلائعية المثقف العضوي الذي يمتلك الوعي النقدي فإن"**سارتر** في كتابه "**دفاع عن المثقفين** " يذهب إلى أن المثقف هو "ذلك الإنسان الذي يعي التعارض القائم فيه و في المجتمع بين البحث عن الحقيقة العملية و بين الإيديولوجيا السائدة "[2]

فإذا كانت الإيديولوجيا ممثلة في السلطة مثلا تعمل على تزييف الوعي و إنتاج أفكارها فإن وظيفة المثقف تكمن في معارضة تلك الإيديولوجيات وإعادة إنتاجها بما يخدم أهداف الطبقات الشعبية العاملة ورفض الواقع المفروض من طرفها .

آمن **سارتر** بأن صفة المثقف لا تطلق على علماء يعملون في حقل انشطار الذرة لتطوير أسلحة الحرب الذرية وتحسينها فهم محض علماء لا أكثر ولا أقل ولكن إذا ما انتاب هؤلاء العلماء أنفسهم الذعر لما تنطوي عليه الأسلحة التي تصنع بفعل جهودهم وأبحاثهم من طاقة تدميرية فاجتمعوا ووقعوا بيانا لتحذير الرأي العام من استخدام القنبلة الذرية غدوا من فورهم مثقفين وذلك بالفعل لأنهم أولا تجاوزوا صلاحيتهم على اعتبار أن صنع قنبلة شيء والحكم على استعمالها شيء آخر ثانيا استغلوا شهرتهم أو الصلاحية المعطاة لهم ليتعدوا على الرأي العام "[3]

المثقف عند **سارتر"** هو الذي يمارس المعرفة والكتابة والإبداع ،حقيقته تكمن في إدراكه للتعارض الكبير بين البحث عن المعنى والحقيقة من ناحية وفضح الإيديولوجيا من ناحية أخرى، فقيمة المثقف عنده تكمن في الدفاع عن القيم الإنسانية وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة لأن المثقف الحقيقي هو الذي لا يحمل تفويضا من أي إنسان ولا تعين له كيانه أي سلطة، وذهب سارتر إلى أبعد من ذلك وهو التمييز

بين المثقف وتقنيو المعرفة ومثاله في ذلك علماء الذرة هم في نظره تقنيو معرفة لكن عندما يجتمعون ويوقعون بيانا يشددون فيه على الدمار و سلبياته يتحولون إلى مثقفين وبذلك تتشكل وظيفة المثقف بصفته يمثل لحظة مقاومة للمصالح قائمة على تغليب مصالح الأغلبية والوقوف في وجه السلطة والمنظمات السياسية التي تسعى بأساليبها للسيطرة على الفكر الثقافي وإنتاج ثقافة التسلط وقمع الأصوات وتحيزه للبعد الإنساني القائم على أنسنة العلاقات والمفاهيم "فالمثقف هو الشاهد على المجتمعات الممزقة التي تنتجه لأنه يستبطن تمزقها بالذات [4]"

المثقف عند **سارتر** هو الذي يدين الممارسات السلطوية حتى وإن كان ينتمي للسلطة نفسها، وما موقفه من الثورة الجزائرية إلا دليلا واضحا عن الدور الواجب أن يلعبه المثقف،فقد أدان الممارسات الاستعمارية الممارسة في حق الشعب الجزائري،ووقف موقفا بطوليا جديرا بالدور الطلائعي للمثقف كما يجب أن يكون ، لقد وقف ضد الرأسمال الفرنسي الذي عمل على تزييف الوعي وإنتاج إيديولوجيا قائمة على السيطرة و العنف فكشف عن تلك الطبقة التي كان جزءا منها وعمل على فضح إيديولوجيتها و نسف أساطيرها .

ثانيا- الثقافة وقضايا المثقف في الفكر العربي : تلقف أفكار **غرامشي** وغيره من المفكرين الغربيين العديد من المثقفين في الفضاء العربي فكان **مالك بن نبي** الذي جاءت أفكاره حول مفهوم الثقافة برؤية جديدة تحفز الفكر العربي والإسلامي وتحركه باتجاه اكتشاف الحقائق،فالثقافة لا تضم في مفهومها الأفكار فحسب،وإنما تضم أشياء أعم من ذلك كثيرا تخص أسلوب الحياة في مجتمع معين من ناحية كما تخص السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى"[5]

تشكل مشكلة الأفكار حيزا هاما في مشروع بن نبي باعتبارها من عوامل نهضة المجتمعات فتطور مجتمع معين هو نتاج للتطور الفكري ويعقد بن نبي مقارنة بين القرن 19الذي قامت فيه العلاقات الدولية على القوة فكانت قيمة الأمم تقاس بما تمتلك من أساطيل وذهب و ... وبين القرن 20 الذي هو قرن الإعلاء من الفكرة باعتبارها قيمة وهذا الأمر هو ما لم تشعر به الدول المتخلفة،أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل وإنما هي في الأفكار"[6]

إن الأفكار شيء محوري في منظومة **بن نبي** لكنها لا تكسب قيمة ثقافية إلا في ظل شروط معينة وتلك الشروط قائمة على أساس الاستنطاق والتعمق ومواجهة منطق السلطة بشتى أنواعها،وهو الأمر الذي لم تقو عليه المجتمعات العربية التي كانت تمر بجانب الأفكار دون أن تتعمقها فالمجتمع الإسلامي في عصر الفارابي كان يخلق أفكارا وأنه كان على عهد بن رشد يبلغها إلى أروبا وإنه بعد ابن خلدون لم يعد قادرا على الخلق ولا على التبليغ"[7]

في ظل السلبية التي تطبع المجتمعات العربية التي لم تعد قادرة على الخلق ولا على مواجهة خطاب السلطة وجب وضع برنامج لتوجيه الثقافة وبلوغ النهضة التي ترنو إليها تلك المجتمعات التي فقدت الثقة في الذات بفعل عوامل كثيرة أهمها الاستعمار وأثره في تصعيد الأزمة الثقافية وذلك البرنامج قائم على أساس تصفية العادات و التقاليد من العوامل التي لا فائدة منها لكي يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة "ولن تتأتى هذه التصفية إلا بفكر جديد يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة "[8]

إضافة إلى الحاجة إلى فكر جديد فإن **مالك بن نبي** يدعو في مشروعه إلى ضرورة فك العزلة التي تقبع فيها المجتمعات العربية وتجاوز مقولات الذات والجغرافيا التي دعا إليها نقاد ما بعد الكولونيالية لأن مشروع الثقافة لا يتحقق عنده إلا بوجود الإنسان في علاقة تواصلية قائمة على أساس أخلاقي "فالضمير الإنساني في القرن 20 لم يعد يتكون في إطار الوطن أو الإقليم،إنما يتكون على ضوء الحوادث العالمية التي لا يستطيع التخلص من تبعاتها .. إن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء منه خارج حدودها الجغرافية..الثقافة أصبحت تتحدد أخلاقيا وتاريخيا داخل تخطيط عالمي"[9]

استطاع **مالك بن نبي** بكتاباته النقدية حول الثقافة ومشكلاتها أن يصوغ نظرية للمثقف قائمة على أساس الدفاع عن القيم الإنسانية،لتبقى استعادة الذات العربية المفقودة وبناء هوية وطنية من أهم المشاريع التي ينبغي أن تنهض بها الثقافة العربية التي وجب وقوفها مليا عند قضايا الثقافة وأهميتها وإشكاليات المثقف المهدد في الوطن العربي.

وإذا كان **مالك بن نبي** نموذج المثقف النقدي كما يجب أن يكون،فما هو الموقع الذي يحتله غيره من المثقفين العرب في البلاد العربية ؟

إن وقفة سريعة على واقع الثقافة العربية تشير إلى أن الدور الذي يلعبه المثقف لا يعدو أن يكون خدمة للسلطة واجتثاثا للذات العربية المثقفة عن طريق الاستعمار الثقافي الممارس من طرفها،فالمثقف المعارض النقدي هو المثقف الذي حكم على نفسه بالنفي،هو الذي فقد الاسم والوظيفة الثقافية في مجتمع متخلف تقوده السلطة المتعالية "فقد أصبح السجن والمنفى المصير الطبيعي لجميع من تساءلوا عن السياسة الجارية التي أصبحت بالية تماما على يد جهاز الدولة فباتت المعارضة تعني الرحيل والرحيل يعني الخيانة "[10]

إنه لكي ينال المثقف الدور الفعال والرضا من طرف الدولة وجب عليه الانغماس في العمل السياسي حتى وإن كان ذلك الأخير يضر بقيمته وبعمله الثقافي،فقيمة المثقف من هذا المنظور تنبع من مواجهة السلطة التي تسعى لتكميم الأفواه التي لا تخدم أهدافها خاصة في مرحلة الما بعد التي شهدت انسحاب المثقفين في ظل سياسة اللااعتراف بهم من طرف الدولة التي تزعم أنها تنادي بالديمقراطية في الزمن اللاديمقراطي الذي يفرض قيوده على مثقفيه .

هي صورة من صور العنف السلطوي الذي تمارسه الدولة السياسية،يقوم بحبس أنفاس المثقف، صورة من صور الاستيلاب الثقافي والعنف الضاغط على المثقف العربي عن طريق جهاز السلطة الذي يمارس إرهابه على مثقفيه،وبالتالي فإنه رغم كل الضغوطات المفروضة وجب على المثقف أن يمارس وظيفته دون خوف ولا رهبة "لأن من المهام المنوطة بالمثقف أو المفكر أن يحاول تحطيم قوالب الأنماط الثابتة والتعميمات الاختزالية التي تفرض قيودا شديدة على الفكر الإنساني و على التواصل بين البشر "[11]

فالرسالة التي ينهض بها المثقف الفعال هي الالتزام بقضايا الشعوب والوقوف في وجه السلطة وتحدي الاستعمار في صوره الحديثة، بهذه الصورة المشرقة وجب أن يصاغ مسار المثقف .

ثالثا-تمثلات المثقف في روايات بشير مفتي: رسمت الرواية الجزائرية ملامح المأساة التي عصفت بالمثقف الجزائري وعبرت عن غيابه فكان التساؤل ماذا أريد أن أكون؟هو التساؤل الذي امتلأ بمعاني الفقد و الغياب جرّاء واقع مفكك امتد ليبلغ الواقع النفسي للذات الإنسانية،هو الوجود الملتبس بدلالات التمزق الذي عبّرت عنه وفضحته الشخوص الروائية التي أدانت المحيط الخارجي القاتل للحلم والمعبّر عن عالم الخيبة والانكسار، واقع معبّر عن لا جدوى الذات وضياع الروح .

وتقف روايات **بشير مفتي** عند تلمس هذا النسق من خلال تقديمه لشخصية المثقف الذي وجد نفسه محاصرا بقوة المرجعيات الفكرية والرموز السلطوية التي لم يستطع التحرر من أسرها ولم يستطع أن يمارس اختراقاته للأجهزة السلطوية أمام هجمة الواقع الكاسح الذي أحكم سيطرته على الأنا،فكانت بذلك شخصيات هاربة من واقعها إلى عالم الخمر والحبّ الذين كانا ملاذ الذات لتحقق من خلالها تلك الحرية التي تصبو لها،هو حاضر الوجود الإنساني الذي أحكم سيطرته على المثقف،حاضر ولدّ العبثية وطرح الأسئلة الوجودية لمثقف يبحث عن ذات منكسرة متراوحة بين الأمل والإحباط والخيبة .

استطاع **بشير مفتي** أن يطرح إشكالية المثقف في صراعه مع القوى المرجعية التي أدت إلى غيابه وعبّرت عن لا جدواه وذلك من خلال تصوير الأجواء التي يعيشها جمع من المثقفين الذي ينتمون إلى فضاءات ثقافية : المحاماة،الصحافة،الجامعة،فئات حملت هم الجزائر في فترة من أحلك فترات التاريخ التي عنوانها : القتل والموت والاغتيال.

كثير من الأسئلة يطرحها المبدع تشي بغياب الدّور الفعال للمثقف من خلال تلك السوداوية والانهزامية التي اعترت عوالم المثقف الجزائري في العشرية السوداء،فالسياق الثقافي الذي انطلق منه المبدع هو أزمة المثقف الذي يواجه العنف و الاغتيال،المثقف الذي حرم من ممارسة حقه حتى في الكتابة والحلم فالأحلام مصادرة والكتابة مستحيلة،هو المثقف الذي وقف عاجزا أمام إكراهات خارجية أملت عليه فقدان وتحطم بوصلة الاتجاهات الإيجابية والدخول في عالم اللاجدوى والعدمية: عالم المتاهة وانفلات زمام المبادرة الإنسانية .

إنها غربة المثقف في زمن الاغتراب،الغربة النابعة من داخل الوطن الذي يقتل أبناءه،الغربة التي تطرح موضوع الهوية والشرخ الذي أصابها من خلال الهرب إلى عوالم المتعة والاحتماء بالحب والخمرة،ففي دفء تلك العوالم تستعيد الذات كينونتها المتشظية الخمارة التي كانت استراتيجية مضادة للآلة القهرية للواقع وللسلطة،في ذلك الجزء من العالم تنفلت الذات من عالم القهر وفي بوحها المشترك تستعيد حضورها وتنسى همومها، وإن كان الحب والمرأة قد زادا من تأزم وضع المثقف .

قدم الروائي في "**بخور السّراب**" هموم المثقف المضطرب بين سلطات عدة تجلت في السلطة الأبوية ومحاولة الانفلات منها :

"كنت أتهرب من هذه الوضعية طوال فترة وجودي وأنا أقاوم سلطة والدي علي ولم أشك لثانية واحدة أن عالمه غريب عن عالمي وأن كل ما من شأنه أن يبعدني عنه هو الحل الأمثل لمشاكلي"[12]

يضعنا الروائي عبر هذه الشخصية أمام تقويض السلطة الأبوية المهيمنة على الذات التي تسعى للتحرر والانعتاق،فعلى حدّ تعبير **شرابي**"لن يكون تغيير أو تحرير دون إزاحة الأب رمزا وسلطة،إن الثورة على تلك السلطة هي الحل الأمثل لجميع المشاكل" [13]

وهو الأمر الذي تجلى عند بطل**بشير مفتي** لماذا يجب أن نحترمهم الآن؟ ماذا فعلوا لنا حتى نحترمهم؟ لأنهم آباؤنا لا غير،هل تتصور أنه تبرير كاف لحبهم وتقديسهم كم من أب خان أبناءه وأضاف إننا نعكس الآية تماما،هنا الأب يقتل ابنه لأنه سلطة عليا لا تنحني أبدا،معركة لا مزية فيها لأحد،كأنه الصراع الخالد ليس بين الإخوة الأعداء ولكن بين الآباء و الأبناء " [14]

وكما انبنت الرواية على تصوير الصراع بين الآباء والأبناء ومواجهة السلطة الأبوية،فقد قامت أيضا على تصوير القمع السلطوي الممارس في حق المثقف الذي حاول جاهدا تحديها إلا أنه وقع أسيرا لها،عبر تصويره لشخصية المثقف خالد رضوان الحالم بالثورة والناقد للسلطة الذي عبر من خلال خطبه عن سياسة الرفض ومواجهة الأنظمة التسلطية " إنهم يريدوننا أن نستسلم للوضع المعفن،لا لن نقبل بأي تراجع عن حريتنا "[15]

لكن سرعان ما تحول كل ذلك إلى مجرد شعارات مداسة،فقد تحول خالد رضوان إلى خادم للنظام تحول من مناضل إلى شاعر يكتب قصائد الحب :

"عرفت أن زمن المناضل قد توقف وأن شخصية الثائر قد ماتت وأن كل ما بقي في جوفه هو انكسارات وأحلام خائبة يحبرها بدم الموت القادم "[16]

صور الروائي عبر تلك الشخصية السقوط والانهزام والانسلاخ عن الواقع المعيش إلى واقع آخر قائم على تسكين السلطة لألم مثقفيها بواسطة الحب والخمرة،هي السلطة التي لا ترحم مثقفيها وتزج بهم في عالم العبث،و بذلك وجدت الأنا نفسها في خضم موجة من التجاذبات السلطوية التي استهدفت هويتها،وتفاقم الوضع في خضم تلك الخيبات التي زادت من تأزم وانكسار الأنا،فانتهى الأمر إلى النهاية المأساوية للمثقفين وهي السفر إلى عوالم الذات الداخلية :

" لا أعلم بأي قوة أنا صامد،ثم خيل لي أنه الصمود الجبان،الصمود الذي لا يعني إلا الانغماس الكلي داخل الصمت والشعور باللاجدوى،لقد بقيت حبيس ذاتي التي تحولت إلى سجن بلا أفق،بلا ضوء،بلا أي معنى "[17]

هي الأزمة النفسية التي ولدت من مخاض الحصار السلطوي على الذات والتي ولدت انعدام الثقة في النفس وفي المجتمع الثقافي،فما قيمة الثقافة في وطن يقتل مثقفيه ؟ وبذلك يطفو سؤال الهوية المعبر عن انجراحات الأنا المثقفة التي خلفها انجراح الواقع الثقافي والسياسي فكانت هوية هشة لذات مسكونة بالاضطراب والإخفاق .

وإذا كانت " **بخور السّراب** " قد وضعتنا أمام اضطراب المثقف بين جدلية الانتماء أو الانتماء لسلطة الآباء والأجداد ولسلطة السياسة فالروايات الأخرى كذلك عبّرت عن بطش السلطة وعن انهزامية المثقف المسلوبة هويته والمقموعة إرادته،فقد قذفت بنا " **أرخبيل الذباب** " في مناخ استبدادي متوتر،تمثله شخوص مثقفة واجهت السلطة عبر الكتابة لكن تلك المواجهة أسفرت عن اجتثاث وعي المثقف الذي انتهى به الأمر إلى إحالة أحلامه إلى جنائز ،فكان الهرب مع الصحافي مصطفى الذي وجد ضالته في الصمت وقرر ترك البلد الذي لا يعطي مساحة لقول الحقيقة :

" مصطفى كان موجودا هناك،لقد وجد ضالته في الصمت،حاول أن يختفي عن الأنظار وأن ينصت لكينونته التي تمزقت "[18]

هي الجزائر التي لا تحفظ حقوق المثقف في التعبير عن آرائه بحرية فينحط الفرد ويتجرد من قيمه ويعلن نهايته المأساوية،إنه الخراب الروحي الذي تحياه الشخوص الروائية الخالي من أية قيمة تشدها للحياة حيث أصبحت عرضة للإحباط ومصائر الموت والتشرد،فها هو عزيز الصافي الذي يصف حالته وسط الخراب ووسط القمع الممارس على أمثاله من المثقفين:

" ماذا بقي لنا لنتمسك به،لقد ضاعت الأحلام الكبيرة ولم يبق أمامنا إلا هذه الزطلة نهرب بها من مواجهة المسائل الحقيقية "[19]

لقد كان كغيره من الشبان يحلم بجزائر قوية وعادلة بعد الاستقلال لكن كانت خيبته أكبر من الحلم الذي حلم به،فانتهى به الأمر إلى الانتحار،كما كان انتحار سمير الهادي .

صور المبدع عبر هذه الفسيفساء من الشخصيات المثقفة المأساة الجماعية لجيل ضائع،فار من بطش السلطة وبطش الأحداث المريعة الواقعة في جزائر التسعينيات،شخصيات عاجزة عن إيجاد أية نقطة من الضوء في جزائر ما بعد الاستقلال فظلت تبحث عن أناها في وجود مجهول،انتهى بها الأمر في النهاية إلى تلك المأساة التراجيدية : الموت والانهزام :

" لم يعد ثمة ما نفعله أمام النعش الكبير لبلد بأكمله إلا أن نرضخ لويلات صراخ الروح التي فاجأها الحدث الأكبر "[20]

ومن"**أرخبيل الذباب** " **إلى دمية النار**" التي طرح فيها **بشير مفتي** مسار التحول في شخصية المثقف رضا شاوش،الذي تحول من مندّد للسلطة وكاشف لألاعيبها إلى خادم وفي لها مع أنه كان في الماضي يرفض ما يقوم به والده الذي كان رمزا من الرموز السلطوية،هو اضطراب الذات بين الماضي المشرق والحاضر المتعفن الذي تحولت بفعله شخصية المثقف إلى مصاص للدماء بفعل إكراهات الواقع ونجاح السلطة في قمع خطاب المثقف :

" فمع مرور السنوات شعرت أنني تحولت،صرت شخصا آخر،يجب أن أؤكد هذه الحقيقة وأنني في تلك اللحظة الزمنية المدنسة فقدت روحي،نعم روحي لا أدري ماهي الروح كنت أعرف ذلك من قبل أي حينما كنت

أسعى لأكون شخصا جديدا مؤمنا كل الإيمان بأن هناك مثالا عادلا يجب أن يتحقق من الداخل،وبأن الحياة مفتوحة على أنقى الأشياء وأجملها،أن الحياة تستحق أن نحيا من أجلها ولأجلها،أن الحياة هبة من السّماء لا نملك إلا أن نعيشها في أنبل صورة وأجمل حلّة،تصورت أن ذلك انتهى من حياتي للأبد،وفي تلك اللحظة لم تعد الحياة بالنسبة لي إلا هم،جماعتهم،عصابتهم،قدرهم لم أعد أثق في خياراتي القديمة و روحي فقدتها في تلك البرهة من الزمن،في ذلك الزمن اللازمني "[21]

إنه البطل الذي اكتسب هوية جديدة،صاحب المبادئ والمثل أصبح إنسانا آخر،الانتقال من نسق الخير إلى نسق الشر،حيث اللاتلاؤم بين هذين النسقين المحكومين بعلاقة الصّراع الأبدي،التحول إلى الشرّ حيث أصبحت الذات من خلاله فاقدة لأي نقطة ضوء تضيء لها مسارها وبانفلات الذات من النسق الخيّر تبني موقفها ومنطقها الخاص من الهوية الهشة المتشظية التي انتهت إلى ذلك التحول العنيف :

"اقتنعت بعدها بأنه لافائدة ترجى من معاندة القدر حينها،لقد صرت واحدا من تلك الكلية الغامضة التي تتحكم في مصائر و أقدار الآخرين،وأنني لم أعد أعيش مع التحتيين كالحشرات التي يمكن أن تسحق لمجرد أنها كانت في طريق أقدام غير مبالية،لقد صارت لي حياة رجل يمص دماء الناس،يقتات منهم بلا رحمة ولم يعد يكفيني ذلك المصّ اللعين لدمائهم بل صرّت أكثر بشاعة من هذا إذ انتقلت لمرتبة أخرى حيث رحت آكل لحومهم "[22]

هكذا اختار البطل الخضوع لذلك النسق،نسق السلطة المتحكم في مصائر العباد والتحول إلى دمية في يد الجهاز،اختار الانسلاخ عن المبادئ التي لطالما نادى بها فكان التشظي وانشطار الهوية وكانت خيبة الأمل "فكل ارتقاء في مراتب الجهاز السلطوي يواكبه سقوط في الروح وتشرد شيطاني في المجهول وبالتالي يمثل صعوده صورة ساخرة للسقوط أو ما يسميه ملتون السمّو الردئ" [23]

ولما كانت عوالم المتعة هي الخيار الأنسب الذي طرحه الروائي للخروج من العدميّة ومواجهة قهر السلطة والمحيط فقد استطاع أن يجيب على التساؤل الذي يظل يطرح في هذا النص الروائي: هل يستطيع الإنسان مقاومة الواقع ؟ وهل الانهزام والتعثر في الحب يؤدي إلى سلب الذات ويغير مسار المثقف الذي أضحى دمية في أيدي أطراف خفية ؟ هو التساؤل الذي أجاب عنه رضا شاوش الذي راح يبرر أسباب ذلك التحول :

" كان الحب هو هزيمتي المنكرة في هذه الحياة وللحظة ربطت كل تحولي القذر من إنسان إلى إنسان آخر بهذا الضعف،كم يكون الضعف طريقا لارتكاب أبشع القذارات وأسوأ الأفعال غير المنتظرة ."[24]

يشخص الرجل الحب كونه سبب البلاوي التي سيجته وسبب ما عتراه من أمواج الخيبة والسقوط، فمنطق الفشل في الحب هو الذي دفع به للسقوط والرضوخ لمنطق النسق المؤسساتي السلطوي الذي كان يدينه،بذلك المنطق الهش منطق الحب الفاشل وقع رضا الشاوش دمية في يد الجهاز .

ويواصل الروائي في " **غرفة الذكريات**" رسم المسافات والقطائع بين السياسة والمثقف مضيفا بذلك إخفاقا آخر في أشكال التمزقات العاصفة بالمحيط الثقافي الذي حملت همومه نخبة من المثقفين في إطار موجة الإكراه والتهميش وفضاء السلطة القامع للحريات،حيث لم يستطع المثقف أمام هذا الواقع المسطر أن ينتزع الاعتراف بالوجود والفعالية،فتتأزم حاله وتصبح الذات خالية من أي معنى،وما الإهداء المسطر في الرواية إلا رمزا من رموز فقدان الذات: " إلى ذلك الجيل الذي فقد الكثير من أحلامه في دروب الجزائر المظلمة "[25]

لقد كانت " **غرفة الذكريات**" هي النص الآخر للروائي الذي عاين فيه مسار الفئات المثقفة الحالمة بالثورة والتغيير في دروب الجزائر القاتلة للأحلام،هي مأساة جيل فقد الأحلام :

"تألمت نعم وكرهت نفسي وكرهت خيبتي من أحلامي التي كانت قاسية علي،تلك التي ظننتها ستتحقق لأنني كنت مؤمنا بها وعلى يقين شبه مطلق أنها لن تخونني في الطريق "[26]

لم يخرج الروائي كما في نصوصه السابقة عن عباءة المثقف الحالم،غير أن الأحلام تصادر من طرف السلطة ليصير المثقف كتلة عائمة في بحر العدمية،فرغم شذرات المقاومة إلا أن السّعي يظلّ شقيا مقارنة بالاستعمار الثقافي الممارس في حق المثقفين:

" فقد تفرغ جمال كافي تقريبا لكتابة المقالات السياسية المعارضة للسلطة والجماعات الدينية وكانت تصل إلى الجرائد التي يكتب فيها رسائل تهديد كثيرة وكان يقول لي أنا لم أعد أخاف من الموت،ويجب أن يستمعوا إلى كلمة الحق " [27]

أكد الروائي عبر هذا المقطع أنه في مقابل سردية القوة تنشأ السرديات المعارضة وذلك بإعادة الحفر فيما غيبته السلطة،فجمال كافي المنبثق صوته من خارج المؤسسة استعاد حريته واستطاع الكتابة بكل جرأة ومصداقية غير أن ثمن الخروج كان باهضا .

طرح **بشير مفتي** عبر هذه النماذج الثقافية: عزيز مالك،جمال كافي،عزيز عمران مأساة المثقف الذي لم يجد بدا غير الهروب:

"صرت مع الوقت أنتمي إلى هذه الفئة التي لا تحب أن تصحو أبدا أو كأنها ترغب في نسيان العالم والعيش في لحظة بين الحياة والموت." [28]

عزيز مالك، جمال كافي، سمير عمران نماذج مثقفة استشعرت الهوّة بين وعيها كمثقفين وبين الواقع الاجتماعي والسياسي الذي فرض عليها أنساقا ثقافية فإما التبعية والرضوخ،وإما الاستسلام والموت،وقد انتهى بها الأمر في النهاية إلى الخيار الأخير،فكان انتحار سمير عمران بسبب خيبة أمله ويوتوبياه في مقتل الرئيس بوضياف الذي كان يعلق عليه الكثير من الآمال ،وكان مقتل جمال كافي بسبب جرأته في كتابة المقالات السياسية المعادية للسلطة .

رابعا- خاتمة

- كشفت النصوص الروائية لبشير مفتي عن مأزق المنظومة الفكرية التي يتمثلها المثقف ودلت على أزمة في وجود المثقف وحريته التي تتجاوز إرادته وتركيبته المعرفية، حيث بدأ المثقف مساره ثوريا أملا بكتابة تواريخ جديدة تفضح المسكوت عنه وتخلخل البنى المقدسة التي يضفيها الجهاز السلطوي للحصول على شرعية ممارساته باسم القانون وانتهى به الأمر انهزاميا حبيسا داخل خطاب معياري يتمثله الجهاز السلطوي الذي لم يستطع تفكيك وتعرية بنيات القوة الكامنة فيه .

- لئن عبرت النظريات الغربية عن الدور الطلائعي للمثقف ممثلا بسارتر وأنطونيو غرامشي إلا أن وقفة على واقع الثقافة العربية صورت الدور الانهزامي للمثقف المحكوم بحتمية السلطة التي تقوم بترسيم الخطوط الحمراء لما يقال وما لا يقال وما يكتب وما لا يكتب إنه الإرهاب الثقافي الممارس على المثقفين.

- صورت النصوص الروائية لبشير مفتي نموذجا للمثقف التقليدي المحاصر بقوة المرجعيات الفكرية والرموز السلطوية الذي لم يستطع التحرر منها فانتهى به الأمر إلى القتل و الاغتيال والخوض في اللاجدوى والعدمية

- أحالت النصوص الروائية على نماذج ثقافية متعددة ومتباينة في الاتجاهات والمواقف الفكرية في علاقتها بالسلطة فمنهم من اختار التبعية للجهاز القمعي مثل ما حدث مع بطل دمية النار ومنهم من قرر انتهاك النسق وخلخلة المقدس وفضح المسكوت عنه ودفع ثمن تلك المعارضة.

- تقف الروايات عند نسق المثقف المهدد في الوطن العربي عامة والجزائر خاصة فلئن استطعنا في الزمن الماضي أن نهزم الاستعمار إلا أنه وفي الزمن الحاضر الذي أضحى فيه استعمار العقول أشد وطأة من استعمار الأراضي والقابلية للاستعمار الثقافي هي الإرث الثقيل الذي أراده المستعمر وأرادته القوى الرجعية في الجزائر.

هوامش وإحالات المقال

[1] إدوارد سعيد :المثقف و السلطة ،ترجمة محمد عناني ، رؤية للنشر ، ط1، 2006،ص33

[2] جان بول سارتر: دفاع عن المثقفين، ترجمة :جورج طرابيشي، دار الآداب ، بيروت ، ط1 ،1973 ص22

[3] المرجع نفسه: ص13،12

[4] المرجع نفسه: ص34

[5] مالك بن نبي: مشكلة الثقافة،ترجمة:عبد الصبور شاهين،دار الوعي،الجزائر،ص 13

[6] المرجع نفسه:ص177

[7] المرجع نفسه:ص49

[8] المرجع نفسه:ص71

[9] المرجع نفسه:ص121

[10] سوزان إليزابيث كساب:الفكر العربي المعاصر،دراسة في النقد الثقافي المقارن،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،ط1،2012،ص20

[11] إدوارد سعيد:المثقف والسلطة،ص191

[12] بشير مفتي:بخور السراب،الدار العربية للعلوم،ناشرون،ط1،2007،ص123

[13] المصدر نفسه:ص125

[14] المصدر نفسه:ص18

[15] المصدر نفسه:ص104

[16] المصدر نفسه:ص109،110

[17] المصدر نفسه:ص121

[18] بشير مفتي:أرخبيل الذباب،منشورات البرزخ،الجزائر،ط1،2000،ص36

[19] المصدر نفسه:ص52

[20] المصدر نفسه:ص105

[21] بشير مفتي:دمية النار،الدار العربية للعلوم،ناشرون،ط1،2010،ص118

[22] المصدر نفسه:ص126

[23] محمد بوعزة:سرديات ثقافية،من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1،2014ص152

[24] بشير مفتي:دمية النار،ص155

[25] بشير مفتي:غرفة الذكريات،منشورات ضفاف،الاختلاف،الجزائر،ط1،2015،ص5

[26] المصدر نفسه:ص،1211

[27] المصدر نفسه:ص214

[28] المصدر نفسه:ص56

قائمة المصادر والمراجع:

1. إدوارد سعيد:المثقف والسلطة،ترجمة ،محمدعناني،رؤية للنشر،ط1،2006

2 . بشير مفتي:بخور السراب،الدار العربية للعلوم ناشرون،ط1،2007

3 . بشير مفتي: أرخبيل الذباب،منشورات البرزخ،الجزائر،ط1،2000

4 . بشير مفتي:دمية النار،الدار العربية للعلوم ناشرون،ط1،2000

5 . بشير مفتي: غرفة الذكريات،منشورات ضفاف،الاختلاف،الجزائر،ط1،2015

6 . جان بول سارتر: دفاع عن المثقفين،ترجمة:جورج طرابيشي،دار الآداب،بيروت،ط1،1973

7 . سوزان إليزابيث كساب:الفكر العربي المعاصر،دراسة في النقد الثقافي المقارن،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،ط1،2012

8. مالك بن نبي: مشكلة الثقافة،ترجمة:عبد الصبور شاهين،دار الوعي،الجزائر،ط1،2013

9. محمد بوعزة:سرديات ثقافية،من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1،2014،ص152